أزمة الهوية محنة الوطن في مسرحية" ربطة العنق الدامية" لنصر الدين بن غنيسة

الباحثة: خيرية دغوم
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة

الهوية هي المميزات التي تميز كل شعب عن غيره من الشعوب الأخرى، فلكل شعب هويته الخاصة به، والهوية الجزائرية نقصد بها مميزات الشعب الجزائري(دين، لغة، والعدات والتقاليد والمقومات الثقافية)، هذا الشعب الذي عان الأمرين من أجل الحفاظ على هذه الهوية؛ والوقوف ضد استعمار عاث ما يقارب قرن ونصف في هذه الأرض، عمل فيها – الاستعمار – كل جهده على محو هذه الهوية وتقزيمها؛ فقمع كل محاولة مقاومة تحريرية وحاول تجهيل الشعب، وتقسيم الإرث الحضاري الجزائري المشترك، لإحياء النّعرات التّي تؤدي إلى ظهور جدل أو عداوة الإثنيات، وهذا ما أدّى إلى تخلخل البنية الاجتماعية في الجزائر، فأصبح المجتمع الجزائري يعاني الحالة من التأزم والتنافر والشقاق. فتدخله هذه الحالة فيما بعد في عشرية سوداء من الدماء والدمار حتى صارت محنة وطنية.

وقد كتب في هذا المحور الكثير من المؤلفات مما يسمونه ويصنفونه ضمن أدب المحنة. وتعد مسرحية" ربطة العنق الدامية" ضمن حقل هذا الأدب الذي يتحدث عن فترة زمنية محددة من تاريخ الجزائر، فكان موضوعها الأساسي محنة الوطن في العشرية السوداء، ليتحدد من خلال مسرحية" ربطة العنق الدامية" موضوع الهوية وراء هذه المحنة ومسببها الرئيس؛ فتصف المسرحية هذه المحنة بشيء من العبثية الوجودية، وتجعلها ضمن خانة خيبات أمل ما بعد الاستقلال وهذا ما سنحاول شرحه في هذه الدراسة.

مسرحية" ربطة العنق الدامية" تنتمي لمسرح اللامعقول أو العبث؛ الذي يعدّ– أي مسرح العبث– نقلا للوضع الراهن في قالبه المشوه بتناوله أبرز القضايا التي تمس صلب أزمة الإنسان المعاصر، من انتهاك للهوية، والعيش تحت رحمة السلطة المستبدة. ليعصف به الحرمان والجوع الروحاني، ومنه يصير عبدا يقدس المادي، فيسلب العقل ليستغل في

خدمة المادي على حساب الروحي؛ فكان هذا الواقع المزري مصدر إلهام كثير من المبدعين، الذين انتقل لهم هذا الشعور بالضياع و الكآبة في عالم تعمه الفوضى الروحية. فأصبح « الواقع المعاش هو المصدر الرئيسي لكل المضامين الأدبية دون استثناء .وحتى الأدباء الذين يعتقدون أن الخيال الصرف هو منبع الإبداع الأدبي عندهم، لابد أن يدركوا أن الخيال ليس سوى إعادة صياغة للواقع بحيث يراه الناس في ضوء جديد وكيان متسق. » [1]

لهذا كان مسرح العبث منذ نشأته الأولى بعد الحرب العالمية الثانية، تعبير عن الواقع المتأزم والأحداث الدموية وتشظّي الذات وفقدان القيم الروحية والعقائدية؛ ليمثل بذلك أحسن تمثيل في تلك الحقبة– الحرب العالمية الثانية– الآداب التي جسدت «الإحساس بالصدمة نتيجة لغياب وفقدان مثل هذه الأسس الواضحة والمحددة للعقائد وللقيم » [2]، وهو بطبيعة الحال ما جعل الإنسان الأوربي المعاصر يعاني أزمة وجودية. ولهذا« لعبت فيه عناصر الوهم والضياع، اليأس والإحباط واللامعنى، دورا حيويا في تشكيل سماته الفكرية وملامحه الفنية» [3].

وفي معالجته لمثل هذه المواضيع تبلور كيانه «بغية تنظيم وتحديد بؤرة تلك العبثية في صلب الهوية من طرف عناصر من "الأنا" نفسه » [4]، فكان ظهوره بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة طبيعية لتأزم الإنسان الغربي المعاصر لخلل في عالميه الداخلي والخارجي وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى أزمة الهوية في ظل مجتمع تعم فيه الفوضى .

ليس التّأزم والعبث بالهوية صفة خاصة بالمجتمعات الغربية بعد الحرب العالمية الثانية فقط؛ بل هو سمة العصر المشتركة بينها، وبين المجتمعات الإنسانية بصفة عامة و الإسلامية بصفة خاصة والعربية الإسلامية بصفة أخص أيضا، وهو ما جسده الوضع في أفغانستان وباكستان ...؛ لتتوصف أزمة الهوية الجماعية وتحديد معالمها التي بدورها تسوغ نظام القيم المشتركة. وهذا التشظّي هو ما تعانيه أغلب الدول الجديدة، في انتمائها إلى العشيرة الطائفية والجماعات الاثنية أو اللغوية، وهو ما يتنافى ويتعارض مع الشعور بالهوية القومية .

فنجد أغلب الدول العربية من هذا النوع–أي التي تعاني الانقسامات والإثنيات والتعددية الطائفية – تعاني إنكار الذات والتملص من الهوية وإثارة القطيعة بين الشعب وسدة الحكم وهو ما زاد في توسيع الهوة بين أفراد شعبها .

و يعود هذا الاختلال في التوازن، ومساقه العنف الذي تنجر عنه حروب أهلية، إلى الانصهار في بوتقة الآخر،و المتمثل في المستعمِر في أغلب الأحيان و الذي يكن له الشعب المغلوب على أمره الولاء والتبعية حتى بعد التحرر، ذلك لترسخ فكرة الآخر الأفضل، التي رسخها أثناء محاولته الدءوبة والدائمة في محو هوية الشعوب المستعمَرة ؛لأنّه بضياع هويتها تبقى مستعبدة لتشكل بذلك كيانا هجينا، أو مخلوقا أسطوريا مطموس المعالم أعمى البصيرة، يتخبط في الدهماء، ولا ينتشله من الضياع سوى الضياع .لأن كل ملامحه غيّبت ولم يبق له سند يتكئ عليه ليشتد عوده ويستقيم أمره، ولهذا تشعر الشعوب المستعمرة بالدونية فتحتل دائما المرتبة الأخيرة وإن لم يكن هناك مرتبة وسطى وخير دليل على ذلك تسمية العالم الثالث، التي هي أساس كل مشاكلنا، كونها دليل قطعي على أزمة هويتنا في عدم الشعور بالانتماء لعالم يحوينا ويحتقرنا في نفس الوقت فيجعلنا مرتبة أخيرة .

لهذا نجد دول العالم الثالث ترى في نفسها تابعا لمتبوع وهو الغرب الذي يتمتع بكل مقومات الرجولة والفحولة والتطور العلمي والتكنولوجيا العالية، في مقابل عالم عربي مشرقي مستَفحَل فيه يتقبل كل وارد دون نقد أو ردْ، فيتم هضم كل ما هو وافد كما قدم إليه دون مراعاة في ذلك معايير أخلاقية أو معتقدات دينية، و يظهر ذلك جليا في تأثير العنف السلطوي الممارس عليها من قبل المستعمِر إبان فترة الاحتلال، لتنحل أخلاقياته وتتميع في خضم الإعجاب بالآخر، وهو ما استقى منه الأدباء العرب أغلب نصوصهم الشعرية الروائية والمسرحية، تحت ما سمى بأزمة الهوية و الاغتراب وهو بالضبط ما تناولته مسرحية ربطة العنق الدامية في طيات صفحاتها، فكان ضمن مواضيعها المحورية، أزمة الهوية ونداء الذات.

وتعتبر أزمة الهوية و تشظّي الذات من المصطلحات الرائجة في الأدب المعاصر والمواضيع التي لقيت استحسانا في لمّها واستهجانا في نشرها،وأعلي لها الصوت في كل منبر لطرحها في الأقطار العربية ؛كونها مشكلة ممتدة مع جذور الإنسان العربي والبحث عن ذاته وعن أصول كيانه .

لهذا «أصبح موضوع الهوية موضوع تساؤل من قبل عدد من الباحثين، خصوصا أن شبكة الاتصال العالمية يزداد تأثيراها يوما بعد يوم، مما رشحه ليكون واحدا من أكثر المصطلحات حاجة للإثارة والمدارسة والفهم ومن ثمّ التجسيد، ذلك لأن الانتماء حاجة متأصلة في طبيعة النفس البشرية وإنسان من غير هوية لا معنى له » [5]، وفقدانه (الهوية)

هو ما أدى بطبيعة الحال إلى اغترابه لأن أزمة الهوية واغتراب الإنسان وجهان لعملة واحدة، كونهما يؤديان في النهاية إلى نفس النتيجة حالة من الضياع والفوضى و لا جدوى العالم .

وإذا ما عدنا للمصطلح لوجدنا أن كلمة هوية تستعمل في الأدبيات المعاصرة « لأداء معنى كلمة(Identity) التي تعبر عن خاصية المطابقة : مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقة لمثيلة، وفي المعاجم الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون، فالهوية هي :حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره، وتسمى أيضا وحدة الذات .

ولذلك فإذا ما اعتمدنا المفهوم اللغوي لكلمة هوية أو استندنا إلى المفهوم الفلسفي الحديث فإن المعنى العام للكلمة لا يتغير، وهو يشمل الامتياز عن الغير، والمطابقة للنفس، أي خصوصية الذات، وما يميز الفرد أو المجتمع عن الأغيار من خصائص ومميزات ومن قيم ومقومات. » [6] .

ولم تعالج قضية الهوية في الأدبيات المعاصرة فقط، بل عالجها أيضا علماء النفس، بتطرقهم للهوية الثقافية للمجتمعات، والسلوكيات الناتجة عن الخلل الذي ينتج إن تعرضت هذه الخصائص النفسية للتغيير، أو إقصاء أحدها. وعولج موضوع الهوية فيما يخص الاتجاه المعرفي، فالخصائص الإبستيمولوجية في هوية المجتمعات المتمثلة في بنائها العقلي وخصائصها اللغوية هي أساس تكوين الفرد .وتحدث أيضا و علماء الأنثروبولوجيا الذين درسوا خصائص الإنسان والمكونات المميزة لكل شعب، وإن كان ضمن الشعوب البدائية فله هويته الخاصة . وكذلك المختصون بالبيئة اهتموا بعلاقتها بالوسط البيئي، وربط بين خصائص الثقافة، ونوعية البيئة المحيطة بها، والسمات الشخصية للأفراد المنتمين إليها؛ لما للبيئة من تأثير على الإنسان فالإنسان الذي يعيش في الشمال ذي المناخ البارد له ميزاته الخاصة، ليس مثل الإنسان الجنوبي الذي يعيش في بيئة حارة .ولهذا فإننا لا نستطيع تحديد هوية الأنا إن لم نحدد هوية الآخر .

ونحصر في هذه الدراسة الأنا في (أنا جزائرية) ذات الانتماء العربي، والآخر الأجنبي أي ينتمي للغرب لسطوة تأثيره علينا درجة التّماهي أحيانا في علاقة التأثر والتأثير؛ ولهذا«يصعب البحث عن (الهوية)العربية اليوم دون أن نولي اهتماما كبيرا بالغرب، منذ عرف الشرق هذه الذات العربية تمضي في تطورها الطبيعي، فتتطور أفكارها وتتبلور تجاربها في ضوء عالمها الخاص بها، ومن هنا فإن فهم ذواتنا لابد من أن يمر على الدوام، عبر

تيار الغرب قبل أن يصب في حركته الدائرية، إلى نقطة المنبع ثانية »[7] وكأنه نوع من الرقابة المفروضة علينا .

من هذه المنطلقات يمكن البحث في موضوع الهوية الجزائرية باعتباره بحث عن الأصول التي تميز الشعب الجزائري عن باقي الشعوب الأخرى، فيثبت مكانته في هذا العالم المتباين المتشابك. ويقول في ذلك الرئيس السابق للجزائر الشادلي بن جديد : «إن الجذور هي في صميم بحث الإنسان الجزائري عن هويته وشخصيته وحتى عن مكانته في عالم اليوم» [8]، وذلك ليثبت وجوده ويصمد ضد رياح التغير المعادي والسلبي.

فبعد خروج الاستعمار الفرنسي– كغرب– جاهد الشعب الجزائري لاستعادة هويته الثقافية– كعرب–، من براثن الاستعمار الذي عان منه قرابة القرن ونصف، وكان ذلك سببا لانمحاء بعض ملامح الهوية الوطنية الجزائرية، وتغير المنظومة القيمية والمعتقدات الفكرية، وظهرت هذه الأعراض في المتفرنسين بصفة عامة والنخبة والطبقة التي اعتنقت السلطة بصفة خاصة ؛ليفقدوا هويتهم والتماهي في الغرب درجة الاضمحلال فتغيب الهوية الأصلية وتحل مكانها هوية هجينة، جنسية جزائرية بخصائص غربية، وهذا ما ألّب الرأي العام على يد المثقفين والمتمسكين بالتراث والاتجاه المحافظ والمعاكس للاتجاه الأول الذي يدعم التشبه بالغرب أو بالأحرى المستعمِر .وطمعا في التغيير نحو الأحسن، لتخلّف بذلك وبالا على الشعب ونتائج لم تحمد عقباها في جميع المستويات وعلى جميع الأصعدة، وهذا بالتحديد هو ما أدى إلى تشظّي الهوية وتمزق الوحدة الوطنية وما أدى « بالذات إلى السقوط والاختلال وهو ما قوى لديه الشعور بالعراء و الغربة بالضآلة» [9]

وإذا ما رجعنا إلى الأحداث الأخيرة الدامية في الجزائر (زمن العشرية السوداء) وهو مدار مسرحية "ربطة العنق الدامية "وبيت قصيدها، لأمكننا القول « أن أزمة الهوية التي خلقها الاستعمار الفرنسي في الجزائر وحالة الاغتراب الثقافي التي يعيشها تيار كبير، له شعبية واسعة داخل المجتمع هي السبب الحقيقي لظاهرة الإرهاب في الجزائر» [10] .

إن هذه الحالة من العبثية التي مرّت بها الجزائر ليست ظاهرة مستحدثة، أو طفرة بل «تدلُّ أمثلة عديدة في التاريخ على أنّ الفتن والحروب الأهلية والأعمال الإرهابية عبثية الطابع تنتج عن أزمة في الهوية الجماعية وتفكّك عناصرها الرئيسية التي تلحم في العادة عناصر المجتمع المختلفة من ناحية أصولها العرقية والقبلية واللغوية والدينية والمذهبية

والمنطقية وتجعلها تقبل نظام الحكم والتراتبية الاجتماعية الناتجة عنه. » [11]، وهو ما يظهر جليا في شخصيات مسرحية "ربطة العنق الدامية "

إنّ مسميات الشخصيات المسرحية، قد لا تؤدي في الظّاهر أي دلالة وهي منفردة كل على حدى، لكن وفي اجتماع هذه الأسماء الثلاثة نجد :

(محمد+على+فاطمة) =الدين (آل البيت)

أن هذه الأسماء لها دور، وأهمية في الحضارة العربية و الأمة الإسلامية ، وهنا تحيلنا هذه الأسماء بطريقة غير مباشرة إلى قضية شائكة،، هنا نفتح قضية الصراع الطائفي بين الشيعة والسنة، ومسألة الإمامة والرسالة، والحروب الدموية التي شهدها التاريخ، ومازالت ليومنا . وعنوان المسرحية في حد ذاته "ربطة العنق الدامية " إشارة وإن كانت غير مباشرة إلى ذلك، ونحن نعلم موقف الشيعة من ربطة العنق ، وما أثارته من جدل حول ارتدائها،فيحرمه فريق، و يكفر من يرتديها فريق آخر، والسبب يرجع كما قيل إلى تاريخ كون ربطة العنق ذات وأصول مسيحية استخدمت كرمز لعباد الصليب .

وما أردنا الوصول إليه من مقاصد النص في هذا الموضوع ، أن الصراع ليس حكرا على الديانات المختلفة، وإنما هناك انشقاق في الدين الواحد، والصراع هنا سواء الطبقي أو الديني، مرتبط بوجود الإنسان قبل حتى هبوطه من الفردوس، فعصى الشيطان ربه بسبب الإنسان ليكون له فيما بعد عدوا مبينا، ثم الصراع بين قابيل وهابيل ؛فيقتل قبيل أخاه هابيل بسبب امرأة، وهنا هذا الصراع هي تيمة راسخة في المجتمع الإنساني، وليس سببه ديني أو طبقي أو عرفي، أو....الخ، و«يقرر أنّ العنف رديف للإسلام مثلما هو رديف للمسيحية » [12]، وهنا يبرئ المؤلف الجزائر من إرهابها كونه عارض طبيعي في أي زمان ومكان، وأي شعب مهما كان، فكل الشعوب قد تتقاتل لأسباب متعددة ، وبذلك يبين لنا أنه ليس للإرهاب معيار أو مبدأ،أو دين، أو لخلل في الشعب الجزائري بذاته، وإنما هي محنة عارضة، وأن التقاتل عارض طبيعي في المجتمعات الإنسانية على رغم اختلاف أو توافق دياناتها ومعتقداتها، وإنما المشكل الحقيقي هنا هو مشكل هوّية.

فكان لمسرحية" ربطة العنق الدامية" التي اتخذت من العشرية السوداء في الجزائر موضوعا لها، أن تتخذ من أزمة الهوية محورا تدور حوله أحداث المسرحية، وما يؤكد ذلك

كله شخصية أخرى وهو الملثم، الذي هو رمز للمعالم المطموسة والهوية المجهولة التي جعلت من الوطن ملحمة عناصرها الفاعلة مجهولة وبطلها وضحيتها الوحيدة هو الشعب .

وقد تجلت أزمة الهوية في أفعال الإرهاب بوضوح وبآرائهم المعتنقة والأحكام التي يتم سنّها من قبلهم، و أعمال العنف التي يتم ممارستها على المستضعفين والأبرياء. وهنا «يمكننا التمييز بين الإرهاب و العنف السياسي حيث يعتبر الإرهاب صورة من صور العنف السياسي و الوحيدة التي تأخذ الطابع الرمزي فالفاعلون يحرصون من خلال القيام بالعمل الإرهابي على تحقيق هدف غير مباشر إذ يصل تأثير هذا العمل إلى أفراد أو طوائف أخرى مستهدفة بالعمل الإرهابي و ذلك عبر رسالة أو إيحاء ما ينطوي عليه هذا الفعل. » [13]، و«لقد أكد الإرهابيون أن الهدف الحقيقي الذي من أجله التحقوا بالعمل المسلح تمثل في ضرورة تطبيق شرع الله لإنقاذ المجتمع و الدين وتخليص البلاد من الفساد ما جعلهم غير نادمين على ما اقترفته أيديهم من أعمال عنف ماداموا يجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله – على حد تعبيرهم – وصيانة الدين الإسلامي الذي يمثل هوية بالنسبة للشعب الجزائري والذي حرف حسب رأيهم، [...] فلولا غياب الوعي الديني داخل المجتمع الجزائري لما فكر هؤلاء الأشخاص بهذه الطريقة المتطرفة من جهة، ولما وجدوا تأييدا واسعا لهم من طرف الشعب الجزائري (غير الواعي دينيا) من جهة أخرى »[14].

وهو ما نجده تمثل على لسان أحد شخصيات المسرحية في قوله:«... هذا الشعب لا يستمرئ العيش إلاّ في خيمة ..يركب الحمار ويحمل الحطب على ظهره ... » [15]، وبما أن «الإرهاب عانى من غموض في التعريف بخصوص الباعث, و المجال, والهدف, والفاعل, فقد أصبح مقترنا بالأفراد إلى حد كبير » [16]، وهو ما صورته ربطة العنق الدامية وأبرزته في شخصية الملثم حيث يمثل الإرهاب المجهول الهوية والهدف، والذي لا يهمه سوى عملية القتل في حد ذاتها دون أسباب ولا تهم العواقب،وهو فرد ينوب عن سلطة خفية فليس مجموعة مما يعني أنها مجهولة الهوية والتوجه وهو ما يظهر في الحوار مقتطف من المسرحية :

«النادل ثم إنه صحفي

الصحفي (للنادل) بم تخرف أيها الأحمق ؟..

الملثم:لا يهمني ...

النادل:طالما كتب يسب أصحاب اللحى..

الملثم:لا يهمني ..

النادل :والذين يرتدون قميصا .. » [17].

«الجزائر مثلها مثل بعض الدول وجدت نفسها في وضع لا تحسد عليه لأنها واجهت – وما تزال– عدوانا مجهول المصدر يضرب في أي وقت وأي مكان ويسدد ضربته إلى أي إنسان راميا إلى إشاعة الرعب و الذعر و الخوف داخل المجتمع الجزائري، هذا الأخير الذي تكبد خسائر مادية وبشرية كبيرة جدا الأمر الذي جعل أخبار الجزائر تتصدر أخبار العالم لأكثر من عشرية من الزمن. »[18].

ونأخذ مقاطع مختلفة من مسرحية ربطة العنق الدامية للتدليل على العمل الإرهابي والنتائج التي لا تحمد عقباها بداية بفرار المواطنين؛«ومنذ أن عشش الإرهاب في الضواحي الكل فرّ..أجانب وجزائريون... » [19] .

وصولا إلى قتل و تصميت كل من أراد أن يعلي كلمة الحق .

«الصحفي :الصحيفة التي أعمل فيها مثلا ..فهي مثال التجرد في تحري الحقيقة ..ولقد لاقت من أجل ذلك أشد العنت ..حتى إن معظم صحفيينا اليوم مهددون بالقتل ..من طرف أولئك المجرمين ..المرتزقة..الخونة .. »[20].

فيتم تصوير الإرهاب عبارة عن صائدي فرص، مجرد خونة ومرتزقة لكونهم لا ينسبون إلى حزب معين أو اتجاه إيديولوجي، فهم عبارة عن عصبة تحاول نهب البلاد وتسخير أجهزتها وسلطتها لمصالحهم الخاصة، وتطهير خبايا أعمالهم غير الشرعية، ولا يهمهم في ذلك الطريقة ولو كانت على حساب الآخرين، فالإرهاب قد يكون الحاكم وقد يكون العامل البسيط، الإرهاب هو من يهدد أمن البلاد في أي مجال وأي مكان والإرهاب لا دين له رغم تستره بعباءة الدين بل هو التطرف بعينه.

و«يتضمن موضوع الإرهاب تقتيل الأبرياء من الأطفال و النساء و الشيوخ وتدمير وتخريب الممتلكات عامة كانت أو خاصة ووسائل النقل العامة و الخاصة على حد سواء والمرافق الوطنية سواء كان ذلك بطريقة عشوائية دون تمييز أو بالنسبة لأشخاص معينين بغية بث الرعب و الفزع في نفوس طائفة من الناس أو الشعب كافة. » [21].

وهو ما صورته ربطة العنق الدامية في مشهد للإبادة الجماعية؛ والتي تم التشهير بها عبر الدعاية الإعلامية وذلك في مقطع من المسرحية «" المذيع "السلام عليكم ورحمة الله ..إليكم مجمل نشرة الأخبار ..وقوع مجزرة في قرية أولاد سي عبد الله ..ذهب ضحيتها خمسون

مواطنا ..من بينهم شيوخ ونساء وأطفال ..سنوافيكم في تفاصيل النشرة بصور عن آثار هذه الجريمة البشعة » [22] .

وهنا سي عبد الله ؛أي عباد الله دون استثناء القتل شمل جميع عباد الله، وهنا الإشارة إلى أن الإرهاب لا دين له، لو كان مبدؤه الدين لما قتل عباد الله الأبرياء، وهي النفس التي حرم الله قتلها إلاّ بالحق، لكن هنا انتهاك لحدود الله وحقوق الإنسان، وهم من يدعي تطبيق حدود الله،ليخالفوا بذلك التشريع السماوي الذي سنه الله، والأرضي وهي قوانين حماية الإنسان، وهو ما يدلل على مروقهم عن أي اعتقاد .

وهدفهم هنا الوحيد تحقيق مصلحة الأسياد الذين يرمون إلى زعزعة أمن البلاد والبحث عن النفوذ وتحقيق الأغراض الشخصية وهنا يصبح الإرهاب ذلك البعبع أو حاصد الأرواح على حسب الأساطير الذي يتفنن في تقتيل الأبرياء، مستغلين بذلك معانات الشعب أزمة هوية وفقدان انتمائه وزعزعة كيانه، بل إضافة خلخلة أخرى حتى صار المجتمع الجزائري منقسم على ذاته يعاني ضياع الهوية وفقدان الذات .

في مسرحية "ربطة العنق الدامية" الشخصية التي مثلت الإرهاب في شكله العبثي والمطموس المعالم، الذي تفوح منه رائحة الموت؛ هي شخصية الملثم وهو يمثل الإنسان الفاوستي* الذي يبيع نفسه للشيطان بموجب عقد، ليبيع روحه الضائعة الطامحة للعلا والسلطة والمال والنفوذ ويصبح بذلك وليا له ومريدا وخادما مطيع ينفذ كل أوامره؛ والشيطان هنا هو الأيادي الخفية المحرضة على الأفعال الإرهابية، وفي عقده مع الشيطان باع نفسه وروحه، ومن ثم لم يستطع شراء نفسه، وهذا ما حدث مع من غرر بهم من قبل الإرهاب، وهذا لفقدان هوية تشمله يحاول الحفاظ عليها، ولهذا كررت كلمة عقد أكثر من مرة في المسرحية، لكن أكبر صفقة قد يعقد فيها عقد هي صفقة الحياة و الموت وخاصة حياة الأبرياء، ويظهر ذلك في المسرحية من خلال حوار الملثم مع إحدى الشخصيات، وهو ما يستدل به كشاهد؛ «يجب أن تموت ..وقرينة القتل ملفوفة حول عنقك ..يجب أن يعلموا أنني نفذت المهمة الموكلة إليّ كما يقتضيه العقد » [23].

وهنا في المسرحية الشيطان هو المتخفي وراء هذه الأحداث الدامية في الجزائر بموجب عقد متفق عليه كما سبق الذكر، ينفذه قاتل ظاهر للعيان، بينما يتخفى الفاعل الحقيقي وراء منصب سلطوي و قد يكون تحريض من أيادي خارجية تعمل لحساب أعداء الإسلام في سعيها لتشويه صورته، ومن الممكن أن يكون من عناصر الجماعات الإسلامية

والتكفير التي أصبحتا نعتا لصيقا للإرهاب في العالم، فكان الملثم يقتل دون أسباب، ليظهر «الوجه الحقيقي لهذه الجماعة من أنهم لا يؤمنون لا بالمسار الانتخابي ولا بالجبهة الإسلامية للإنقاذ ولا حتى العمل الحزبي » [24] .

وليس الجماعة فقط بل النظام والسلطة أيضا، وهنا وجد الشعب الجزائري في مواجهة «وحش برأسين :التطرف المجرم والنظام الذي أنجبه » [25] .

ومن الإشارة التي تدلل على ذلك في المسرحية،هي السمة المشتركة بين العناصر والملتحية وكأنهما وجهان لعملة واحد حيث يمكنهما هما التجول فقط بعد حضر التجول ليصبحا وحدهما مالكين البلاد في وطن يعمه السكون والظلام .

«الأستاذ :لا يجرؤ الخروج إلاّ العسكر ..

النادل : ..و الأشباح الملتحية.. » [26]

وهنا صورة رمزية لحال الجزائر في العشرية السوداء، وطن في ظلمة القتل والدماء والدمار، تحكمه الأشباح الملتحية والعساكر، والبقية ينَفّذ فيهم حكم الموت رغم براءتهم، الليل هو دلالة على الظلم، وحضر التجول دلالة على التَّصْمِيتْ الممارس من الطرفين و الشعب هنا هو الوحيد المغلوب على أمره .

وإذا عدنا إلى البحث عن أزمة الهوية أو الإرهاب في الجزائر لأنّهما اسمين لنفس المشكل – محنة الوطن – لوجدنا أن المؤكد الوحيد « حسب ما يذكر أحمد مراح العنصر لسابق في جماعة مصطفى بو يعلي المسلحة أن :« الأفغان لعبوا دورا أساسيا ومحوريا في الأعمال الوحشية التي عرفتها الجزائر لكنه يشير أيضا إلى مسؤولية الحكومة في تسهيل مهمتهم في نقل أفكار التكفير وتعبئة أنصار الإنقاذ ضد الحكومة التي سنت، من جانبها حملة اعتقالات في أوساط المتعاطفين مع جبهة الإنقاذ في كل الولايات ونقلتهم إلى ستة معتقلات أمنية بالصحراء في إطار تدابير حالة الطوارئ كانت هذه المراكز فرصة تاريخية للأفغان الجزائريين لنشر أفكارهم وسط مؤيدي الإنقاذ» [27].

حيث يقوم هؤلاء باستغلال الذين يعانون حالة من الضياع، الفاقدون هويتهم، فيحاولون التّقرب منهم لإعادة ترميم دواتهم، فيبرمجونهم آليا لمصالحهم الشخصية تحت راية الإسلام كونه الدعامة الأساسية للهوية الجزائرية، وهذا يرجع إلى الجوع الروحي والضياع المتأتي من المحيط الخارجي الذي ابتعد عن مقوماته الروحية التي تلعب دورا أساسيا في تكوين هويته، ولأن الشباب يعاني هذه الحالة من التأزم دون أن يجد من يحتضنه ليخرجه

من مأزق فقدان الهوية فإنه يرمي نفسه في سعير الانتماء للإرهاب كحاضن بديل، لحالة التيه والضياع فيصبحون كالغريق المتعلق بقشة، فيرون في الإرهاب المغلب بغطاء الإسلام حام لهم ومشبع لجوعهم الروحي، الذي سببه الأول ابتعادهم عن عادات الأجداد وما له صلة بالإرث الروحي لديهم، وفي نفس الوقت لم يلتحقوا بركب الغرب والتطور، فكأنهم أصيبوا بلعنة تنتالوس ليعيشوا في عذاب أبدي .

وهذا التناقض في المبدأ والتوافق في الهدف بين الإرهاب والسلطة، وإن مبدؤهما مختلف إلاّ أنه يجمع بينهما عداؤهما للشعب وممارسات عمليات التقتيل المستمرة، وفي نفس الوقت يدعي كل منهما الاستقامة وحماية هذا الشعب، وأن كل الإجراءات المتخذة لصالحه ليعيش في سلام محافظا على هويته الوطنية، وطن موحد تحت راية السلام و الإسلام، فيقع هذا الشعب اليتيم دون راع يرعاه أو يد مساعدة تساعده؛ فيقتل ويعذب وينكل به أيما تنكيل، وتهان كرامته وتمارس عليه أسوء أنواع العنف من قبل الإرهاب غير المعروف والمجهول الهوية ، في خضم ذلك يعاني الشعب الضياع والشتات ويفقد هويته وانتسابه السياسي في عمق مأساة الراهن، وهو ما صورته ربطة العنق الدامية ؛«مما يدفع بالذات القارئة إلى المعانات تحت وطأة أسئلة جوهرية حول راهنية الحال وفجائية الذات والهوية» [28]، وهو السؤال الذي طرحته مسرحية " ربطة العنق الدامية "ولم تتم الإجابة عنه لقالبها العبثي، الذي لا يقدم حلول، وإنّما يعرض الواقع في صور إيحائية* يترجمها القارئ، ويقدم كل قارئ حلوله المناسبة والتي تتطابق و أفكاره، ومذهبه المتبنى، فتتوالد الدلالات والحلول والنتائج من متلقي لآخر، فتصور "ربطة العنق الدامية " أزمة الهوية وأزمة الراهن، في قالبه الملفوف بالغموض، والمغلف بلاجدوى الحياة وعبثية الموت .

نستطيع القول كخاتمة؛ طغت على مسرحية "ربطة العنق الدامية " رؤية**(كافكاوية)** قاتمة وسخرية غير محدودة، فرغم بساطة لغتها وأحداثها، فإنها تحمل رموزاً عميقة، ما يجعلها صالحة للعديد من التفاسير متعددة المعاني، مصورة الواقع الراهن، وعبثية الحياة، فنحن في الواقع نعيش حالة العبث في نواحٍ مختلفة من حياتنا وواقعنا المحزن ..آمالنا الضائعة ووطننا الجريح، كل ذلك وأكثر يدعو للسخرية ..مما يجعل الحياة تدور في دوامة العبث اللامتناهي، فيعيش نوعا من الغربة والاستلاب في عالم تعمّه الفوضى وتناقض القيم في خضمِّ الصراع الطبقي الاجتماعي، القوي هو السيد والضعيف هو المسود؛ وكل هذه المواضيع تفضي في النهاية إلى التمرد،، و الصراع بين الإنسان والعالم بجانبيه المعقول

واللامعقول، هو ما يولد العبث في المسرحية: نقصد بالعبث ؛عبث الأخلاق، والراهن والواقع. ليبرز شقاء الإنسان في هذا العالم المعقول اللامعقول وهو ما يؤدي بطبيعة الحال إلى أزمة الهوية ونكران الذات.

هوامش الدراسة :

(1)- نبيل راغب: موسوعة الفكر الأدبي، دار غريب، القاهرة، مصر، [د،ط]، 2002، ص364.

(2)- مارتن اسلن: دراما اللامعقول، تر: صدقي عبد الله خطاب، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط2، 2009، ص7.

(3)- نبيل راغب: المرجع السابق، ص 381.

(4)- عز الدين جلاوجي: سلطان النص دراسات في روايات، دار المعرفة، الجزائر، [د.ط]، 2008، ص 157.

(5)- سلطان بلغيث: تمظهرات أزمة الهوية لدى الشباب، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية عدد خاص لهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيو ثقافية في المجتمع الجزائري، ص 349.

(6)- سلطان بلغيث المرجع نفسه، ص 349.

(7)- مصطفى عبد الغني: الاتجاه القومي في الرواية، عالم المعرفة، الكويت، [د.ط]، 1994، ص 91.

(8)- الشادلي بن جديد: مذكرات، 1929_1979، دار القصبة للنشر، الجزائر، ج1، [د،ط]، 2011، ص 24.

(9)- ينظر: عز الدين جلاوجي: المرجع السابق، ص 191.

(10)- سامية حميدي، أسباب ظاهرة الإرهاب في الجزائر(سجن بسكرة نموذجا)، مذكرة تخرج مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم اجتماع التنمية(مخطوط)، إشراف بلقاسم سلاطنية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2003_2004، ص 202.

(11)- جورج قرم: ضياع الهوية العربية، مجلة العربي الكويتية، أول يوليو 2010.

(12)- نصر الدين بن غنيسة: عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة، منشورات إختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص 98.

(13)- سامية حميدي: المرجع السابق، ص 148.

(14)- سامية حميدي: المرجع نفسه،ص 201 .

(15)- نصر الدين بن غنيسة :ربطة العنق الدامية (مسرحية من ثلاث فصول)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2007،ص 68 .

(16)- سامية حميدي : المرجع السابق، ص 32 .

(17)- نصر الدين بن غنيسة :، المصدر السابق، ص 153_154.

(18)- سامية حميدي : المرجع السابق، ص أ

(19)- نصر الدين بن غنيسة :المصدر السابق، ،ص 64.

(20)- نصر الدين بن غنيسة :المصدر نفسه، ص 16 .

(21)- سامية حميدي :المرجع السابق،، ص أ .

(22)- نصر الدين بن غنيسة :المصدر السابق،، ص 101 .

* فاوست : فاوست أو فاوستوس (باللاتينية:Faustus) هو الشخصية الرئيسية في الحكاية الألمانية الشعبية عن الساحر والخيميائي الألماني الدكتور يوهان جورج فاوست الذي يُبرم عقداً مع الشيطان. وأصبحت هذه القصة أساساً لأعمال أدبية مختلفة لكتاب مختلفين حول العالم لعل أشهر هذه الأعمال هي مسرحية فاوست لغوته وعمل كريستوفر مارلو، كلاوس مان، توماس مان، كلايف باركر، تشارلز غونود، هيكتور بيرليوز، أريغو بويتو، أوسكار وايلد، تيري براتشيت، ميخائيل بولغاكوف، فرناندو بيسوا ومن العرب علي أحمد باكثير في فاوست الجديد، كريم الصياد في منهج تربوي مقترح لفاوست، تدور قصة فاوست في شكلها الأساسي حول سعيه إلى اكتشاف الجوهر الحقيقي للحياة، ما يقوده إلى استدعاء الشيطان ويمثله مفستوفيليس ليبرم معه عقداً يقضي بأن يقوم بخدمته طوال حياته ليستولي على روحه بعد مماته، لكن الاستيلاء على روح فاوست مشروط ببلوغه قمة السعاده.

(23)- نصر الدين بن غنيسة :المصدر السابق، ،ص131

(24)- محمد مقدم :ملفات الإرهاب تحقيقات (الأفغان الجزائريون من الجماعة إلى القاعدة)،المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، [د.ط]،2002،ص 224 .

(25)- محمد مقدم : المرجع نفسه، ص 188 .

(26)- نصر الدين بن غنيسة :المصدر السابق، ،ص 96 .

(27)- محمد مقدم :، المرجع السابق، ص 61 .

(28)- عز الدين جلاوجي : المرجع السابق ، ص 167 .

* وهذا ما صرح به المؤلف نصر الدين بن غنيسة في مقابة شخصية معه، 12\05\2013،جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر على الساعة 9:38 صباحا .